المعارضة

لما اقتحم ثوار فرنسا سجن الباستيل فى ١٤ يولية سنة ١٧٨٩ حطموا أبواب الزنازين بالبلط والفؤوس ودعوا المساجين والمعتقلين الذين طال عليهم الأمد فى غيابات السجن أن ينطلقوا إلى الحرية ، ولكن كم كانت دهشة الثوار إذ رأوا بعضهم يقاوم ويتشبث بالبقاء فى السجن . وقد بدا عليهم فزع هائل ؛ ولا غرابة فى مسلك هؤلاء التعساء فهم لطول مكثهم بعيداً عن الحياة الحرة ألفوا القيد وخافوا جلبة الدنيا . فالحرية — على تمكن غريزتها — نبات حساس سريع العطب ما لم نتعهده بالرّى والرعاية ؛ ومن أجل هذا جاء القرآن الكريم بنصوص إن تأملها المسلمون وتدبروها فإنها تقيهم العبودية . فى القرآن أربع طوائف من الآيات لكل منها رسالة فى إبقاء جذوة الحرية متقدة فى النفوس .

فالطائفة الأولى : أثبتت كل ما وجهه خصوم الإسلام إليه من قذائف الإهانة .

والطائفة الثانية : سجلت كل حجج خصوم الإسلام فى جدالهم إبان نزول القرآن .

والطائفة الثالثة : بينت كل ما كان من الرسول من أمور عاتبه الله تعالى عليها ورده فيها إلى الصواب .

أما الطائفة الرابعة والأخيرة : فقد أعطت طرفًا مما توجه به المسلمون إلى الرسول من الأسئلة ، وجدالهم أحيانًا معه عليه الصلاة والسلام .

عن آيات الطائفة الأولى ما قاله الكافرون عن القرآن : (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) ، ومنه ما يريدون به غمز أمانة الرسول (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) ، ومنها اتهامه عليه الصلاة

والسلام بالجنون : (يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) . . أو بأنه شاعر ومجنون (إنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) ، أو بأنه ساحر كذاب : (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) .

ويخاطب القرآن الكريم بهذه الآيات كل من يتولى أمراً من أمور المسلمين بقوله إنكم لستم كرسول الله ، ولا أبعد منه عن المعصية ، ولا أكرم على الله منه ، ولكن هأنتم أولاء ترون كيف سبه الجهال وتطاولوا عليه . فلم يجرح ذلك صدره ، ولم يثنه عن الجهاد ، فلا تضيقوا بدوركم بتجنى المتجنين ، ولا عيب العائبين فهذه ضريبة القيادة والأمانة .

أما الطائفة الثانية فقد سجلت كل حجج الخصوم بنصها ، وسجلت الرد عليها ، فقد جاء فى القرآن مثلا : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين) ، مسجلا ما قاله خصوم الرسول من أن القرآن كان من إملاء راهب مسيحى ، ولم يخش القرآن على عقول المسلمين من سماع هذه التهمة ، وتناقلها جيلا بعد جيل ، وقال المشركون ساخرين بلسان أحدهم : (من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) .

وقال المشركون إذا كنت رسولا حقاً فأتنا بمعجزة كمعجزات موسى وعيسى ، فرد عليهم القرآن : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) .

ولذا فرسول الله يحاج مشركى العرب وزعماء الكفار من قريش بالحجة والقرآن ، مطمئناً إلى نصر الله .

والقرآن الكريم يخاطب المسلمين على مر الدهور ، بهذه الآيات ، بأن العقيدة السليمة لاخوف عليها من حجج الخصوم وجدالهم ، بل إن إثبات هذه الحجج وبيانها والرد عليها يكسب العقيدة قوة ويربك خصومها .

أما الطائفة الثالثة فهى التى عاتب فيها الله سبحانه وتعالى عبده محمداً خاتم الرسل ، على أمر من الأمور ، ومن هذه الآيات : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) . (عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى) (يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك . وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) .

وبهذه الطائفة من الآيات يخاطب القرآن المسلمين بأنه لا عليكم من الخطأ . فالرسول نفسه قد خوطب على الوجه الذى رأيتم فى هذه الآيات . فاعملوا واجتهدوا ، فإن أصبتم فلكم أجران . وإن أخطأتم فلكم أجر . لا تظنوا أنكم لا تخطئون .

أما الطائفة الأخيرة فتطلعنا على بعض ما توجه به المسلمون من أسئلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى القرآن نحو خمسة عشر موضعاً أو يزيد . بها آيات تبدأ بلفظ (يسألونك) . ذلك لأن المسلمين درجوا على أن يسألوا الرسول فى كل ما يعن لهم من أمور . لا يبين لهم فيها وجه الحق . وكان القرآن يقول لنا إنكم إذا كنتم مطالبين بأن تطيلوا صبركم على الخصوم ، فما أحراكم أن توسعوا صدوركم للأصدقاء : يسألونكم ويجادلونكم كما جادل الرسول أصحابه .

وقد اجتمع للإسلام هذا كله ، بفضل الظروف التى نشأ فيها ، فقد عانى المسلمون الأوائل الأمرين ، عانوا الاضطهاد والمعارضة اللجوجة الشرسة .

ولكن الإسلام لم يعرف — فى أى دور من أدوار حياته — المعارضة المتحزبة كجزء من نظامه ، كالتى يحسب أنها النظام الأمثل فى حين أن العمل يؤكد أنها على أحسن الأحوال شر لا بد منه ، فقد سجل التاريخ الحديث ، أن العالم ألقى به فى أتون المجزرة البشرية على يدى هذه المعارضة التى عميت عن المصلحة الكبرى ، من أجل المصلحة الذاتية .

ولعل الفوضى التى يعانى منها العالم فى السياسة والمال والفقر ، والتى يدل عليها تعثر العدل الدولى وعجزه . وتأييد المشكلات الدولية وتفاقمها ، والبلايين المبددة فى التسليح من جانب والمخدرات من جانب آخر : والمخاوف التى تجتاح الجماعات والأفراد — لعل هذا كله يقطع بأن النظام السياسى فى العالم أخفق إخفاقا يجعل من حق الإسلام علينا . أن نتأمل تجربته فى الحكم والمعارضة ، التى تلقى بعض المسئولية على أفراد المجتمع أجمعين : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ، بعد أن ترهف الضمير العام والضمير الشخصى على السواء . وتزيل الحواجز بين الحاكم والمحكوم ، وتفرض على الموظف العام حياة بسيطة ، وتجعله فى متناول السرية يسألونه وينصحونه ، ويلتمسون عنده الإرشاد والنصح أيضا ، وتجعل دور العبادة ندوات مفتوحة على الدوام ، لمناقشة الشئون العامة تنقش على بابها « من رأى منكم منكراً فليغيره »